● الفصل الثالث

الوزارة كتابة فمنصباً إدارياً

ـ *قبيل ـ وأثناء ـ عهد الرسول ﷺ .*

ـ *وفى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين.*

ـ *ومن أبى سَلَمة إلى ابن المسلمة فى القرن الخامس الهجرى.*

* **أعراض ضعفها وأسبابه .**

١ - الوزارة قبل الإسلام وفى عهد الرسول:

الوزارة ـ كما عرفنا ـ نظام قديم من نظم الحكم فقد ورد ذكره فى تاريخ البابليين والفراعنة واليونان والرومان، مثلما كان عند الساسانيين فى كتاب الأفستا واليهود فى العهد القديم ـ التوراة ـ، لذا قال عنها السيوطى: «إنها وظيفة قديمة كانت للملوك من قبل الإسلام بل من قبل الطوفان»[١]. وقد توصلنا آنفًا إلى أن استعمالها فى القرآن على لسان موسى منذ أربعة عشر قرنًا وفى كتاب العهد القديم قبل ذلك بكثير، مما يدلنا على قدم هذا المنصب وليس عند العرب فقط وإنما عند أمم أخرى سبقتهم زمنًا، وربما فاقتهم آنذاك مدنية وحضارة.

وقد أشارت المصادر وهى كثيرة ـ إلى وجود هذا المنصب عند العرب دون لفظه قبل الإسلام عند ملوك اليمن والشام والحيرة[٢] وأطلقوا على من يقوم بوظيفته أسماء منها: الراهن والزعيم والكافى والكامل.. تريد بذلك أنه مرتهن بالتدابير زعيم بصواب الرأى، كاف للملك مهمات الأمور، كامل الفضائل[٣].

ثم ظهر الإسلام وقد تغيرت بظهوره معالم واندثرت عوالم واستحدثت بين الدول خطوط جديدة على سطح الأرض ولكبر حدود الدولة الناشئة لم تثبت بعد، وقواعدها لم تستقر وترسخ، وأعمالها لم تتفرع وتتنوع وتتعقد أيضًا، فلا يحتاج ولى الأمر إلى أكثر من مشير إذا لزم الأمر أو مجلس شورى يلجأ إليه إذا اقتضت الحاجة وتأزم الوضع.

---

(١) السيوطى ـ حسن المحاضرة ج٢ ص١٤٩، ١٥٠، والمسعودى ـ التنبيه ص ٣٤٠.
(٢) المسعودى ـ التنبيه والأشراف ص ٣٢٩.
(٣) المرجع السابق ص ٣٢٩.

وهكذا فعل الرسول عندما قام بأعباء الحكم بعد البعث. فلم تكن هناك دولة للعرب فى الحجاز وهو مهبط رأسه وموطن نشأته وتكوين دولته، وقد اعتمد على الكتّاب من نبهاء قومه فيما اعتمد عليه لتثبيت كتابه ونشر رسالته وتدوين تشريعاته وتبليغ زعماء القبائل والحكومات المجاورة له.

ولعلّ من دوافع الحكمة فى بعثته أميّا، بالإضافة إلى ما هو مشهور من حكم ـ لئلاّ يعتمد فى كتابة الوحى على نفسه أو على واحد من المقربين إليه فحسب فإن هذا العديد من الكتبة شهادة صادقة بصحة ما كُتب، ودقة ما أُثبت، وفى استشارتهم لمهمات الأمور ضمان لمصاير الناس حتى لا تعجز هذه الرسالة عن السير وتتعطل عن الخطو، فكان من كتّابه وزراؤه وكان وزراؤه مستشاريه ـ وكان الخلفاء الراشدون الأربعة الذين استخلفوا بعده من جملة وزرائه، فكان يقرّب إليه من أصحابه ـ أبا بكر وعمر وعلى وغيرهم ـ فيفاوضهم فى مهماته الخاصة والعامة[1].

٢ ـ فى عهد الراشدين والأمويين:

ولمّا استخلف الراشدون محمدًا ساروا على نهجه واتخذوا من سيرته نموذجًا يسيرون بموجبه، فكان كل واحد منهم يقرّب إليه من أصحابه من يأنس إليه ويثق بنزاهته وأمانته، حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها فى عهد كسرى وقيصر والنجاشى يسمون أبا بكر وزيره ـ محمد ـ وكذا عمر مع أبى بكر، وعلى وعثمان مع عمر، ومروان بن الحكم مع عثمان [2].

وما أن تقلد بنو أميّة زمام الحكم حتى مالوا به نحو الدنيا واتجهوا بالدولة هذه الوجهة التى يرونها إمّا نتيجة لمطامعهم أو تأثرًا بنظم الإمبراطورية الرومانية بحكم جوارهم، أو لهما معًا حتى عرف معاوية مؤسس هذه الدولة بمقصورته وشدة عنايته بالحجابة حتى عُدت أول منصب بدئ به، كما اعتبر هو

(١) المقدمة ص ٣٢.

(٢) السيوطى ـ حسن المحاضرة ص ١٤٩. عن ابن كثير فى تاريخه، وابن خلدون ـ المقدمة ص ١١٥.

أول من عنى بذلك [1]. أمّا ما يتصل بالوزارة فكان عهدهم امتدادا لخلافة الراشدين وتوسّعًا بطيئًا فى صلاحيات الوزارة كما سنذكر أسباب ذلك.. فقد أوردت المصادر العربية والفارسية جميعًا ـ قائمة بأسماء كتّابهم تحت عنوان «وزراء الدولة» الأموية، اثنى عشر شخصًا [2].. من أشهرهم عمرو بن العاص وزير معاوية، وقيل: زياد بن أبيه[3] ، وروح بن زنباع وزير عبد الملك، ورجاء بن حيوة وزير هشام بن عبد الملك.. ثم عبد الحميد بن يحيى الكاتب وزير مروان[4]، إلا أنّه لم يطلق على واحد منهم لقب وزير ولا خوطب بسمة الوزارة.. إذ لم تكن لها رتبة تعرف مدة بنى أمية وصدرًا من دولة السفاح، بل كان كل من أعان الخلفاء على أمرهم يقال له فلان وزير فلان بمعنى أنه مؤازرٌ له لا أنه متولٍ رتبة خاصة يجرى لها قوانين وتنتظم بها دواوين[5] .

والذى يظهر أن الدولة الأموية قد احتفظت باسم الكاتب والمشير دون تلقيب بالوزارة طوال عهد خلفائها الأربعة عشر.. ويعلّل معظم المؤرخين لذلك بأن ملوك بنى أمية تستكبر أن تخاطب كاتبًا لها بالوزارة وتقول: الوزير مشتق من المؤازرة والخليفة أجلّ من أن يحتاج إليها[6] حتى قال السيوطى وهو يتحدث عن عمرو بن العاص كوزير لمعاوية: «وإن كان له وزيرًا فإنه أجلّ قدرًا وأعظم أمرًا من أن يجرى معه مجرى الوزراء[7]».

غير أننى أظن ـ ولا أظن فيما ظننت مجانبة للصواب ـ لذلك سببًا آخر ينبغى أن يؤخذ بنظر الاعتبار، ذلك هو ما يوحيه هذا اللفظ من معانى الجلال والقدسية من ناحية والمشاركة فى تدبير الأمور والسلطان من ناحية أخرى. فقد أطلق فى القرآن على هارون وزير موسى وأخيه وخليفته من بعده ـ كما

(١) ابن خلدون ـ المقدمة ص ١١٦، ١١٨.
(٢) خزندمير ـ دستور الوزارة ص ٢٠.
(٣) أحمد أمين ـ ضحى الإسلام ج١ ص١٧١ عن الطبري.
(٤) السيوطي ـ حسن المحاضرة ص ١٤٩ عن ابن كثير.
(٥) المصدر السابق ص ١٥٠.
(٦) المسعودى ـ التنبيه والأشراف ص ٣٣٩.
(٧) السيوطي ـ حسن المحاضرة ص ١٥٠.

استعمل فى الحديث لأبى بكر وعمر وزيرى الرسول، وخليفتيه بعد وفاته. وغير خافٍ على ملوك بنى أمية تاريخ هذا اللفظ ولم يضعف أو يتبدل معناه فى أذهانهم بعد، فكيف يصحّ إذن أن يطلق لقب الوزير على كاتب صغير؟ وكيف يشركون معهم فى الحكم أشخاصًا هم فى غنى عن مؤازرتهم كما يتصوّرون وفى خوف من مساهمتهم، وفى استخلافهم الملك كما يظنون؟

الوزارة تطور لنظام الكتابة:

فالوزارة بدأت بالكتابة ـ فى هذا العهد ـ التى تعطى للكاتب من قِبَلِ الخليفة، وتصدر بشكل توقيعات بعد تداول الرأى والوصول به إلى قرار حاسم، ثم قوى أمر الكتابة بتوسع المملكة، وتحضّر العائشين فى ظلالهما وأخذت ميزات الكاتب وفائدته وضرورته تتضح كلما كثرت الأعمال وازداد عدد العمال والولاة، وبذلك أخذ نفوذهم يقوى ومكانتهم ترتفع والحاجة إليهم تشتد حتى وجدنا سلسلة هؤلاء الكاتبين تنتهى بعبد الحميد وابن المقفع فكانا نقطة التحول من الكتابة نظامًا إلى الوزارة منصبًا.

وعلى هذا نستطيع القول ولا نظننا خاطئين بأن الوزارة تطور لنظام الكتابة فى زمن الخلافتين الراشدية والأموية.. وذلك لأن الكتابة كصناعة لسانية وقلمية وأدبية كانت حينذاك ولم تزل حتى اليوم من أعظم الوسائل لبلوغ منصب الوزارة ولم تكن الحاجة إليها ماسة حينما كان الخلفاء ورجال الحاشية يعبرون عن الغرض المقصود بأبلغ العبارات، إذ إن اللسان العربى لذلك العهد بقى على حاله ولم يفسد بالمخالطة وإنما احتيج لصاحبها من حيث الخط[1] وحفظ السرية والتشاور فى الأمور.. ولأن عبارة ابن خلدون تدل بوضوح على أن الوزارة لفظ مستعمل لهذا المعنى فى العهد الأموى فهو يقول: «ثم استفحل الملك بعد ذلك ـ أى بعد عهد معاوية واتخاذه الحجابة فظهر المشاور والمعين فى أمور القبائل والعصائب واستئلافهم وأطلق عليه اسم الوزير، فكانت الوزارة

(١) المقدمة ص ١١٥.

أرفع رتبهم يومئذٍ، هذا فى سائر دولة بنى أمية فكان النظر عامًا للوزير»[1]. ولذا أقبل الخلفاء العباسيون على المتعربين من الفرس يستوزرونهم لتقدمهم فى هذه الصناعة لأن العرب: «كانوا أهل فصاحة لسانية أكثر منهم أهل بلاغة كتابية»[2]وهم أحوج ما يكون إلى الكاتب لا إلى الخطيب ولهذا ألّف ابن قتيبة كتابه اللغوى المشهور باسم «أدب الكاتب» الذى عدّه ابن خلدون أحد أربعة كتب فى أصول الأدب وأركانه كما ألّف الصولى كتابًا بهذا الاسم بحث فيه الكتابة والخط والقلم والقرطاس وأمثال ذلك ممّا يساعد الكتّاب على إتقان العربية.

ومن هنا اشتهر نفر من الخلفاء بوزرائهم الكاتبين واشتهر فريق من الوزراء بكتّابهم البارزين وكانت الكتابة سلمًا يرتقى بصاحبه إلى الوزارة لأنها كما يقول صاحب المثل السائر ـ هى الخوض فى كل فن. فإذا ساغ لكل ذى علم أن ينسب نفسه إليه فيقال: فلان النحوى وفلان الفقيه وفلان المتكلم فلا يسوغ له أن ينسب نفسه إلى الكتابة لما يفتقر إليه الكاتب من معرفة بكل علم[3].

إذا عرفنا ذلك، وعرفنا مدى اعتماد هؤلاء وأولئك على كتّابهم فى وضع صيغ الرسائل والعهود والخطابات وأمثالها خامرنا الشك فى نسبة الكثير مما وصلنا إلى أصحابه، كما نقطع جازمين بنسبة معظم ما ينشر وبخاصة السياسى منه ـ إلى غير ذويه وأربابه.

وإنه لمما يعجبنى ويعجب كل قارئ لابن خلدون عرضه المنطقى لتطور نظام الوزارة بإسلوب علمى معلّل، وكيف بدأ نشأته ونموّه فى دولة العرب شرقًا وغربًا وقبل الإسلام وبعده. والذى يظهر من كلامه أن الوزارة بدأت حياتها ـ قبل الإسلام بجباية الأموال وإنفاقها، وحماية الرعيّة بالجند والحرب ولم تكن مشاركته فى الحرب ومفاوضته فيه[4]. وبمجىء الإسلام قد تغير النظر فيها إلى

(١) المقدمة ص ٢١٢.
(٢) أحمد أمين ـ ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٧٤.
(٣) ابن الأثير ـ المثل السائر ص ٥، ٦ ، ٤٦ ـ ٤٨.
(٤) المقدمة ص ١١٥، ١١٦.

الاستعانة بالمشورة وتبادل وجهات النظر قبل البت فى الأمور وتنفيذها وفى نزول الآية ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾[1] تنبيه إلى ضرورة المشاورة.

وإطلاق لفظ وزير على المشاور من قبل العرب العارفين - كما سبق -[2] تأييد لما ندعيه.. ثم صار نظر الوزير عامـا فى أحوال التدبير والمفاوضات ومباشر الحمايات والمطالبات وما يتبعها فى ديوان الجند وفرض العطاء بالأهلية وغير ذلك[3].

وابن خلدون هنا لم يسلم من تناقضة فى قوله: فإنه فى الوقت الذى يدلّل على تسمية مستشارى الرسول والخلفاء الراشدين والأمويين وكتابهم بالوزراء تراه يعلّل لعدم معرفة المسلمين لهذا اللقب كأنه حقيقة علمية بسذاجة الإسلام وأمية العرب حينذاك[4]. ولعلّه يقصد بهذا: عدم شيوع استعماله، كما يعنى بسذاجة الإسلام: بساطته وعدم التعقيد فى أحكامه.

وبذلك يتضح أن الوزارة قد اتخذت فى حياتها التطورية دوراً جديداً جمعت فيه مزايا سابقة مضافًا إليها المعارضة فى الرأى والنظر فى مختلف الأمور... فهى لم تختلف فى عهد هذه الدولة على قصره عن سلّم التطور الصاعد وخطته النامية وأخذت تقوى وتتأصل رويدًا وتتسع وتتفرع تدريجًا على الرغم مما يقال بأن الخلافة قد استحالت إلى ملك عضوض وأن ملكًا هذا شأنه لا يرجى منه أن يعتمد على الشورى، وأن يلجأ ملوكه إلى المؤازرة عند الحاجة ليتحمل عنهم الوزراء أثقال الحكم وأعباءه عند الملمات ويحملون آثام الحاكمين عند المنازعات والظلامات.

وعلى الرغم مما كان يخامر ملوك هذه الدولة الذين خلفوا معاوية وورثوا عنه مظاهر الأبهة والملكية والعنجهية القبلية، مما لم تعرفه سيرة الرسول ولم يألفه الخلفاء الراشدون ويباعد بينهم وبين وزير فى اختصاصاته وواجباته، وعلى الخليفة نحوه من الالتزامات والحقوق مالا يتفق والغرور القومى والشخصى ولا يمكن التخلص، من آثاره السيئة.

---

(١) سورة آل عمران - من الآية ١٥٩.
(٢) المصدر المقدمة ص ١١٥، ١١٦.
(٣) المصدر السابق ص ١١٥، ١١٦.
(٤) المصدر السابق ص ١١٥، ١١٦.

قد يقال ذلك وقد يكون صحيحًا ما يقال إلى حد ما، ولكننا نرى، فضلاً عما تقدم أن اختصاصات الوزير لم تتضح بعد. والحاجة لقيام شخص معين فى مهمات الوزارة لم يعدّ ضروريًا ما لم يشعر الخلفاء بمـيس الحاجة إليه. . وفوق هذا وذاك فقد كان لكل واحد من ملوكهم أتباع وحاشية فإذا حدث أمرٌ صعب استشار ذوى الحجى والآراء الصائبة فكلّ منهم يجرى مجرى وزير[1].

٣ ـ فى العهد العباسى:

ثم جاءت دولة بنى العباس راسخة شامخة وبسطت جناحيها شرقًا وغربًا حتى شملت ظلال تلك الغمامة الراكضة التى استحثها الرشيد حينما رآها عابرة أجواز الفضاء فخاطبها بقوله: «أمطرى أنّى شئت فإن خراجك سيعود إلى خزانتى. حينئذ كان طبيعيًا أن تزدهر الوزارة وتنمو دوحتها المورقة لأن الحاجة إلى جنيها أصبحت شديدة، فعظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة فى إنفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته فى الدولة»، وفوضت إليه مصاير الناس وموارد الخزينة بعد أن اتسعت حدودها وتضاعفت مواردها[2].

وبانتقالنا إلى هذا العهد وما رافقه من استقرار فى الملك وتوطيد لدعائمه وتوسيع فى رقعته، وتداخل فى أعماله وتعقّد فى مسائله أخذت الوزارة طابعًا ثالثًا جمعت فيه بين الخصيصتين السابقتين: التنفيذ والرأى ثم الاستقلال فيهما، وهو معنى التفويض، كما يدل عليه ظاهر النصوص.

قيل لمّا ولىّ الوزارة ـ يحيى بن خالد البرمكى، قال له الرشيد: «فوّضت إليك أمر الرعيّة وخلعت ذلك من عنقى وجعلته فى عنقك، فولّ من شئت واعزلّ من شئت، وأيّد قوله هذا بأن أعطاه قائمة وكان هذا إفراطًا كبيرًا فى ثقته بالوزارة[3]. وبذلك ارتفعت منزلته وأصبح الآمر الناهى دون منازع، وليس للخليفة عليه سوى الإشراف على شئون الدولة والاطلاع على أحوالها فهو الذى ينظّم خطط الحرب وهو الذى يخطّ مسوّدات الرسائل والعهود ويضع قواعد

(١) ابن طباطبا ـ الآداب السلطانية ص ١٢٦.

(٢) ابن خلدون ـ المقدمة ص ١٣٨.

(٣) ول ديورانت ـ قصة الحضارة ج١٣ ص ٤٢ ـ ترجمة بدران.

التعيين والإعفاء والنقل ويشرف على موارد الخزينة من قبض وخرج. وأسند إليه النظر فى الأموال جمعها وتفريقها وفى الجيوش تنظيمها فى السلم والحرب والنظر فى القلم لصون أسرار السلطان؛ ليحفظها من الضياع والشيوع فصار اسم الوزير جامعًا لخطتى القلم والسيف، وحتى دعى جعفر بن يحيى البرمكى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظرته[1]. وبذلك تمهدت قواعد الوزارة وتقررت قوانينها وسمّى الوزير وزيرًا وكان يسمّى قبل ذلك كاتبًا ومشيرًا[2].

وعلى هذا يمكننا تقسيمها حسب مراحل تطورها إلى كتابة فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين فوزارة تنفيذ فى الدولة الأموية ثم وزارة تفويض فى الخلافة العباسية، حيث لم يكن قد وجد هذا المنصب الأخير فى أيام السفاح وليس فى عهد المنصور ولا المهدى، وأول وزير مفوّض عرف هو جعفر البرمكى، ثم الفضل بن سهل فى عهدى الرشيد والمأمون[3].

الوزارة من أبى سلمة إلى ابن المسلمة:

وكما يجمع المؤرخون على أن الوزارة منصب قديم فإنهم يتفقون على أن أول من استعمل لفظ الوزير كمرتبة محدّدة لطبقة معينة من موظفى الدولة فى خلافة بنى العباس، وأن أول من أطلق عليه هذا اللقب: أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال[4]. ومن الطريف أن يحمل لقب وزير لأول مرة فى تاريخ الوزارة فى الإسلام رجل عربى من هَمْدان إحدى قبائل اليمن العظيمة[5]. وقد يظنه بعضهم لأول وهلة أنه من هَمدَان إحدى مدن إيران الشهيرة، أو أنه مولى فارسى[6]. وقد شاع لقبه بالوزير قبل أن يستتبّ الأمر لبنى العباس وكانت

(١) ابن خلدون ـ المقدمة ص ١٦.
(٢) ابن طبابا ـ الآداب السلطانية ص ١٣٦.
(٣) مير على ـ مختصر تاريخ العرب ص ٢٥٥.
(٤) المسعودى ـ التنبيه والأشراف ص ٣٣٩، ٣٤٠، الإعلان بالتوبيخ ص ١٢٥، ١٢٦.
(٥) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ج٢ ص ١٩٧.
(٦) أحمد أمين ـ ضحى الإسلام ج١ ص١٧٢.

المكاتبات ترسل إليه بعنوان: الأمير حفص بن سليمان وزير آل محمد، وبخاصة من قبل أبى مسلم الخراسانى[1].

ومن المؤسف حقاً أن تكون خاتمة حياته القتل على يد أبى مسلم قيل: بموافقة من الخليفة ـ السفاح ـ بعد أن خدم الدولة وعرّض نفسه للمخاطر فى سبيلها وكان له الفضل الكبير فى تأسيسها فقد عاش فى الكوفة زمنًا يمثل دور ضابط الاتصال بين رجال الدعوة لآل محمد ثم فى (الحميمة) من أعمال دمشق وبين خراسان، كما جعل من الكوفة همزة الوصل بين هاتين المدينتين[2].

ولم يكن حال الوزارة فى عهد المنصور بخير منه فى عهد أخيه أبى العباس السفاح من قبل. فقد كان مستبدًا برأيه معتمدًا على كفاءته، وكان الوزراء على وجل وخوف من بطشه فلا يظهر لهم أبهة ورونق[3]. ففى عهده حدثت أول مصادرة لوزير، فإنه بعد تأكده من خيانة وزيره ـ أبى أيوب الموريانى ـ نكبه وقتله سنة ١٥٣ هـ هو وأقاربه، واستصفى أموالهم[4] بعد أن قضى على ـ أبى الجهم بن عطية الجاهلى ـ حينما عرف أنه عُيّن عليه من أبى مسلم الخراسانى.

ومهما يكن من أمر العلاقة بين الخليفة والوزير سواء أكانت طردية أم عكسية قوية أم ضعيفة فإنها بلغت مرحلة من الضعف والانحلال بحيث لم يبق لهما سوى الاسم، وصار تعيين الخليفة أو الوزير وعزلهما بيد قواد الجيش من الترك والفرس، وصار المال هدفًا لكل واحد منهما حتى أصبحت الوزارة مطمع كل ثرى وإن كان جاهلاً بليدًا. ومن هنا عجز الوزراء عن النهوض بأعباء الوزارة فلم يستطيعوا التوفيق بين مطامع الخلفاء المقدسة الموروثة عن السلف وبين أطماع الحكام المستبدين، وصار الخلفاء ألعوبة كالوزراء بيد قادة السيف. فهذا الخليفة: الراضى لم يوكل أمر الوزارة إلى ابن رائق حتى يستبدّ بها دون الخليفة ويترفع عن لقب الوزير فيمنحه الخليفة لقب أمير الأمراء، فيصير هو الآمر الناهى فى كل شىء ويشير على الخليفة بأن يولّى الوزارة ـ للفضل بن جعفر بن الفرات.

(١) الجيهشيارى ـ الوزراء والكتّاب ص ٤٨.
(٢) الفخرى ص ١٣٦.
(٣) الفخرى ص ١٥٦.
(٤) الفخرى ص ١٨٥.

وسرعان ما يأمر بعزله ويخلع الخليفة الراضى ويجىء بالمتقّى للخلافة ويأتى بالبريدى أبى عبد الله للوزارة، ولكن لم يمض عليه شهر حتى نهب العسكر داره وانهزم إلى ـ واسط ـ فجىء بالبريدى للمرة الثانية حتى هجاه أبو الفرج الأصفهانى بقصيدة طويلة استهلها بقوله:

يا سماء أسقطى ويا أرض ميدى قد تولى الوزارة ابن البريد

ثم جىء بعده بعلىّ بن أبى علىّ بن مقلة فلم تمر به عدة أيام حتى خُلع خليفته ـ المتقى ـ وما أن حلّ بعده المتكفى الذى لم يعرف فى عهده سوى وزير واحد هو أبو محمد بن على السامرى، فلم تتجاوز أيامه ٤٢ يومًا حتى قُبض عليه وعيّن كتّابه يُديرون شئون دار الخلافة تحت حكم البويهيين، الذى استمر فى عهد الخلفاء المطيع والطائع والقادر إلى أن بويع الخليفة القائم سنة ٤٢٢ هـ الذى أقرّ ابن المسلمة فى وزارته.

وإذا جاز لنا أن نتصور للوزارة طرفين وان ما بينهما من صعود وهبوط فإن نقطة الأوج كانت هى أيام البرامكة فى عهد الرشيد قبل سخطه عليهم وانتقامه منهم، وكانت السفلى فى أيام ابن المسلمة حيث لقى أفظع أنواع التعذيب والتشهير وأقذع ألوان الإذلال والتنكيل على يد أبى الحارث البساسيرى الذى قام بانقلاب عسكرى ضد الخليفة القائم وحكومته والدعوة للخلافة الفاطمية بمصر والذى قضى عليهما طغرلبك مؤسس الدولة السلجوقية بدخوله بغداد عام ٤٤٧هـ، كما قضى على الدولة البويهية وأعاد إلى الخلافة العباسية مجدها الغابر، ولو شاء لقضى عليها أيضًا بدلاً من أن يستظل بظلها ويستخدمها لبقائه.

التنكيل بالوزراء:

وعلى الرغم من أن الوزارة تمثل المنصب الثانى فى الدولة بعد المسئول الأول سواءٌ أكان خليفةً أم سلطانًا أم ملكًا أم أميرًا، فإن الوزراء وبخاصة أبو سلمة لاقوا من الهوان والسجن والمصادرة وبالتالى التشهير والقتل ولاسيما فى العهد البويهى وقبيل بروز السلاجقة، لذلك رأيت من المفيد أن أعرض أمام القارئ قائمة موجزة بأسماء الوزراء الذين عانوا تلك الصنوف من المآسى خلال الحكم

العباسى إلى حين ظهور سلاطين السلاجقة الثلاثة الأوائل: طغرلبك، وألب أرسلان، وملكشاه، وباستشارة الوزير «نظام الملك» الذى نتحدث عن سيرته فى الصفحات القادمة:

١ ـ أبو سلمة الخلال: الذى قُتل على يد أبى مسلم الخرسانى بإيعاز من الخليفة السفاح.

٢ ـ أبو أيوب الموريانى: نكبه المنصور وقتله واستصفى أمواله مع أقاربه.

٣ ـ البرامكة: لم يرتفع نجم وزارتهم حتى نكبهم الخليفة الرشيد.

٤ ـ الفضل بن الربيع (وزير الأمين): انتهت حياته بالتشريد بعد قتل الخليفة الأمين واستيلاء المأمون على الخلافة.

٥ ـ الفضل بن سهل (وزير المأمون): كان مصيره أفظع من سابقه، حيث قتله فى طوس سنة ٢٠٢هـ.

٦ ـ محمد بن عبد الملك بن الزيات: قبض عليه المتوكل بعد أن أثبت جدارته فى عهد الواثق ومن قبله المعتصم.

٧ ـ أبو جعفر محمد بن الفضل الجرجانى: حيث خلعه المتوكل لشيخوخته.

٨ ـ أبو صالح محمد بن داود (وزير المستعين بالله): حيث هرب خوفًا على حياته من تهديد الأتراك بقتله.

٩ ـ أبو جعفر أحمد بن إسرائيل الأنبارى: حيث وثب عليه الأتراك وضربوه واستصفوا أمواله ولم تنفع شفاعة الخليفة المعتز به، وقد ضُرب حتى مات.

١٠ ـ العباس بن الحسن: أقرّه المقتدر على وزارته بعد وفاة أخيه المكتفى فقد وثب عليه الحسين بن حمدان وجماعة من الجند وقتلوه.

١١ ـ الحسن بن الفرات: حيث اضطر المقتدر لإعادته للوزارة ثلاث مرات

انتهت بالقبض عليه وقتله سنة ٣١٢هـ على الرغم من أنه هو الذى قضى على انقلاب عبد الله بن المعتز وإعادة المقتدر إلى عرش الخلافة.

١٢ ـ عبد الرحيم بن عيسى الجراح: حيث لم تمر فترة قصيرة على وزارته حتى قُبض عليه فى عهد الخليفة الراضى.

١٣- على بن عيسى الجراح: حيث لم يستقر عليه الخليفة المقتدر، فسرعان ما سجنه وجاء بحامد بن العباس.

١٤- عبيد الله بن محمد الكلواذانى: استوزره المقتدر أيضًا، وقد وثب عليه الجند ورجموه فانقطع فى داره إلى أن مات.

١٥- الحسن بن القاسم بن عبيد الله بن وهب: حيث قبض عليه المقتدر حينما ظهر عجزه، وأبعد عن العراق أيام الراضى، وكانت خاتمة حياته القتل، فقد أرسل إليه ابن مقلة من حمل رأسه إلى دار الخلافة.

وحينما يكون خلع الخليفة وتنصيب غيره مكانه حتى لو كان من بنى العباس وتعيين الوزير وعزله وإحلال غيره محله ولو كان جاهلاً بليدًا، ويكون هذا وذاك بيد قادة الجيش، تكون حينئذٍ بداية النهاية للخلافة العباسية فى بغداد. ولئن تّم سقوطها بعد قرنين تقريبًا فذلك بسبب السلاجقة الأوائل الذين دعّموا الخلافة والوزارة وجدّدوا الحياة فيهما بحيث استمرت طوال هذه الفترة إلى حين هجوم هولاكو على بغداد وقضائه على آخر خليفة عباسى ـ المستعصم ـ سنة ٦٥٦هـ.

لذا نرى أن الانتعاش الوزارى بلغ ذروته فى عهد السلاجقة بفضل وزيرهم «نظام الملك». فعندما استرد الخلفاء نفوذهم الزمنى أحيوا هذا المنصب من جديد[١]، وسرت فى أوصاله روح الحياة الهانئة المستقرة وغدا الوزراء ينعمون برفعة الجاه وعلو المنزلة وحرية الرأى إلى حدٍ كبير.

* * *

(١) الفخرى ص ٢٥٤.